

قال فى رثاء حماره :

نفق الحمار ، فمن أصاحب وأخل بى زين الركائب

وبقيت وحدى فوق قارعة الطريق كظل راهب

أمشى فتعثر خطوتى أعيأ ، فلا أجد المصاحب

وأشير للركبان لايتأفون ، ولما مجابوب !

كان الحمار سفينتى تجتاز بى أعتى المصائب

ويقلبنى بكفاءة ويشيل مختلف الحقائق

وإذا شعرت بوحدة حدثته عما أغالب

فيظل يسمعونى بلا ضجر ، ويجتنب المقالب⁽¹⁾

كان الحمار يحس مثلى بالصعوبة والمصاعب

ولطالما هطلت مدامعه على ذكر الدروات

ورثى لضعف وسائلى عما أروم من الرغائب

كان الحمار مثقفا من طول ما شهد المعائب⁽²⁾

وتشد أذنيه أحاديث الجوائز والمنصب

وإذا رآنى غاضبا ألقى بنظرته يعاتب

وكانما يفضى إلى بـأن هذا العصر (ضارب)⁽³⁾

وبأن أحكام الزمان على المواهب (ضرب لازب)⁽⁴⁾

وبأن أغنية السقوط تقول للبناء (حاسب) !⁽⁵⁾

وبأنهم يتهافون مواكبا تتلو مواكب !

بالأمس لم يذق الشعير ، وكان منتفخ الجوانب

وبدا كأن به اكتئابا والكآبة لا تغالب

حاولت أن أمضى به فى نزهة بين الملاعب

فأبى المسير ، ولم يكن يأبى ، وفضل أن يراقب

ومع الصباح وجدته ملقى ، على إحدى المصاطب

أخرجته ، ودفنته وتركته ، والدمع غالب

أصبحت وحدى فى الطريق ، وليس لى فى الدرب صاحب !

(1) المقالب هنا جمع مقلب ، والمقصود بها أكوام القمامة العالية التى تعترض طريق المراكب والسائر على المسواء .

(2) ورد عند المجاحظ فى كتاب (الحيوان) وصف كل من الديك والكلب بأنه مثقف أو ذو ثقافة . والمقصود بذلك أنه ماهر فى أداء العمل . أما وصف الحمار بالثقافة عند المتباحي فيقترب كثيرا من المعنى المعاصر لكلمة مثقف !

(3) ضارب : غير منضبط العقل ، ولا منطقى التفكير .

(4) ضرب لازب : صدفة .

(5) حاسب : فعل أمر بالتوقف أو التنبيه .